أنماط النفي في الخطاب النبوي دراسة نحوية تداولية لأفعال الكلام (رياض الصالحين) نموذجًا

د/ منى الشمري (*)

الملخص:

تناقش هذه الدراسة المقاربة التداولية لأنماط النفي في الخطاب النبوي من خلال كتاب رياض الصالحين للنووي، وقد ارتضت أن تتخذ نظرية أفعال الكلام منطلقًا لها باعتبارها المعبرة عن فحوى التداولية والحاملة لمضمونها.

وأسلوب النفي بأنماطه الصريحة والضمنية بحسب المقاربة التداولية حدث كلامي يهدف إلى إنجاز فعل في ذهن المخاطب، من خلال رسائل توجيهية من منشئ الخطاب وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المخاطبين، بهدف تحقيق عدة غايات كتغيير السلوكيات وضبط التصرفات وتصحيح التصورات، أو التنبيه على الممنوعات، أو الإرشاد إلى ضررها، كل ذلك من خلال فعل النفي باعتباره فعلًا كلاميًّا يحمل أحداثًا إنجازية وتأثيرية وضمنية يقتضيها السياق والمقام.

وقد تنوعت الأفعال الكلامية التي يثيرها النفي في الخطاب النبوي إلى: أفعال خبرية تقريرية، وتوجيهية طلبية، وإعلانية تصريحية، وتعبيرية إفصاحية، ووعدية التزامية.

الكلمات المفتاحية:

النفي– الخطاب النبوي– رياض الصالحين– التداولية – الأفعال الكلامية

(*) عضو هيئة تدريس بكلية التربية الأساسية بالكويت.

المقدمة

١- موضوع الدراسة:

تدور هذه الدراسة حول تداولية أنماط النفي في الحديث النبوي الشريف من جهة نظرية أفعال الكلام والتي تسمى أيضًا بأحداث الكلام، باعتبارها أبرز نظريات التداولية والمعبرة عن فحواها ومضمونها.

والنفي أسلوب لغوي يتركب من ثلاثة عناصر: أداة النفي والمنفي والمنفي عنه، هذا فضلًا عن وجود عنصرين آخرين يحيطان بهذا الأسلوب وهما: النافي أي: المتكلم منشئ النفي، والمخاطَب أي: المستهدف بالخطاب المنفي.

وقد ارتضى البحث أن يجعل كتاب رياض الصالحين مجالًا تطبيقيًّا لهذه الدراسة؛ وذلك من باب الربط بين التنظير النحوي والتطبيق النصي. وتشمل أنماط النفي محل الدراسة أنماط النفي الصريح وله أدواته التي تدل عليه صراحة، وأنماط النفي الضمني وله ألفاظه الدالة عليه.

٢- أهمية الدراسة وسبب اختيار موضوعها:

يُعد الحديث الشريف المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، ومرجعًا مهمًّا لدراسة اللغة والنحو، ففيه من الثراء والفصاحة والتنوع ما يُعيننا على فهم اللغة وتذوقها، فقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فصيحًا بليغًا جميل الأسلوب ثري المعاني، وقد عُرف بأنه أفصح العرب، وقد احتج علماء النحو بالحديث الشريف، ولكن هذا الاحتجاج كان قليلًا قياسًا على الاحتجاج بالقرآن الكريم والشعر.

وقد وقع اختياري على كتاب رياض الصالحين للإمام النووي ليكون نموذجًا للدراسة؛ لما له من مكانة علمية ودينية ولغوية، ولرغبة الباحثة في خدمة اللغة العربية من خلال دراسة نصوص الخطاب النبوي التي لها قيمة لغوية وأدبية ودينية.

وأحاول في هذه الدراسة أن أبرز أهمية النفي في الدرس اللغوي في بيان مقاصد الخطاب النبوي، وكيف يمكن أن تُوظَّف اللغة من أجل إنتاج دلالات تداولية متنوعة تناسب المخاطبين.

ومعروف أن ظاهرة النفي في أبواب النحو لم تُدرَس في باب واحد بل في أبواب متفرقة، لذا كانت الرغبة ملحّة في إبراز دوره في تداولية الخطاب النبوي؛ حيث تنظر التداولية إلى النفي على أنه فعل كلامي يهدف إلى التأثير في المخاطب، وإنتاج دلالات بلاغية وأخرى إقناعية تبين المقاصد الشرعية المراد إيصالها إلى المكلفين.

٣- أسئلة الدراسة:

من أبرز الأسئلة التي تحاول الدراسة أن تجيب عنها:

أ- ما أنماط النفي في كتاب رياض الصالحين للنووي؟

ب- كيف يمكن استثمار أسلوب النفي في بيان تعاليم الشريعة الإسلامية؟

ج- ما الدلالات التداولية التي يثيرها النفي في الخطاب النبوي؟

د- ما الأفعال الكلامية التي يتضمنها النفي في الخطاب النبوي؟

هـ- كيف أسهم النفي في تعميق العلاقة بين اللغة والشريعة؟

و- ما أثر النفي في بيان التكاليف الشرعية، وإيصال رسالة الإسلام إلى المكلفين؟

ز- هل أسهم أسلوب النفي في إنتاج سمات أسلوبية للخطاب النبوي؟

٤- منهج الدراسة:

اختارت الدراسة المنهج الاستقرائي لاستقراء أنماط النفي في كتاب رياض الصالحين، ثم المنهج الوصفي لوصف كل نمط من جهة اللغة والنحو، ثم المنهج التحليلي الذي اعتمد تداولية الأفعال الكلامية طريقًا لفحص الخطاب النبوي.

٥- خطة الدراسة:

تشتمل خطة الدراسة على: مقدمة، وتمهيد، ومحورين، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة: وتشتمل على: التعريف بموضوع الدراسة، وأهميتها وسبب اختيار موضوعها، وأسئلتها، ومنهجها، وخطتها.

التمهيد: ويشتمل على: التعريف بالإمام النووي رحمه الله، وبكتابه رياض الصالحين، والمراد بالنفي في العربية، والتعريف بالاتجاه التداولي، ونظرية الأفعال الكلامية.

المحور الأول: أنماط النفي الصريح: ويشتمل على:

أولًا: أنماط النفي الصريح في الجملة الاسمية: ويشمل: النفي باستخدام (لا) النافية للجنس – النفي باستخدام (ليس) – النفي باستخدام (ما).

ثانيًا: أنماط النفي الصريح في الجملة الفعلية: ويشمل: النفي باستخدام (لا) – النفي باستخدام (لم) – النفي باستخدام (لن) – النفي باستخدام (ما).

المحور الثاني: النفي الضمني: ويتضمن: الاستفهام– الاستثناء– النهي– القصر.

الخاتمة: وتشتمل على أبرز ما توصلت إليه الدراسة من نتائج.

التمهيد

١– الإمام النووي:

هو الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف بن مُرِّي بن حسن بن حسين بن محمد بن حزام الحزامي النووي الشافعي، ولد عام (٦٣١هـ = ١٢٣٣م) في (نوى)، وتوفي عام (٦٧٦هـ = ١٢٧٧م)، وهو محدِّث وفقيه ولغوي، وأحد أبرز فقهاء الشافعية، لُقب بشيخ الشافعية، حيث كان محررًا للمذهب الشافعي ومهذبه ومنقحه ومرتبه. من مصنفاته: رياض الصالحين، الأربعون النووية، منهاج الطالبين، الروضة[١].

٢– كتاب رياض الصالحين:

هذا الكتاب اسمه رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، وهو كتاب عظيم ألفه صاحبه خدمة لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوثيقًا له، والأحاديث التي ذُكرت فيه أحاديث صحيحة[٢]. وقد عد العلماء هذا الكتاب من أفضل كتب الحديث بعد الكتب السِّتّة التي تروي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد بلغ عدد الأحاديث الواردة فيه ١٨٩٦ حديثًا، وقد روى الإمام النووي رحمه الله هذه الأحاديث مكتفيًا بالمتن دون ذكر السَّند، مبتدئًا بالصحابي، وقليلًا ما ذكر التابعي، كما نقل في كتابه بعضًا من أقوال الصحابة وأفعالهم. وقد انتقى أحاديثه من أحاديث البخاري ومسلم، وأعده بطريقة سهلة سلسة تُسهِّل على طالب العلم البحث فيه وتدارسه.

---

[١] السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية، ٨/ ٣٩٣، دار هجر، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ. والزركلي، خير الدين، الأعلام ، ٨/ ١٤٩، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢م.

[٢] نبه الشيخان الألباني والأرناؤوط على بعض الأحاديث الضعيفة فيه، وهي قليلة جدًا.

٣- النفي في العربية:

النفي أسلوب لغوي من أقسام الخبر؛ وذلك أن "الكلام إما إثبات وإما نفي"[١]. وهذا الأسلوب يُعبر عن موقف سياقي له دلالات متنوعة، ولم يتناوله النحاة بالدرس في باب مستقلّ؛ بل توزّعت مسائله على أبواب متفرقة؛ بحيث دُرس من الناحية التركيبية تبعًا لتوزيع الأبواب النحوية وفق نظرية العامل.

ويدخل النفي على الجملتين الاسمية والفعلية، فينفي المسند (الفعل والخبر) والمنفي عنهما هو المسند إليه (الفاعل والمبتدأ). إذن الجملة المنفية هي التي تتصدَّرها أداة النفي لنفي ثبوت المسند إلى المسند إليه[٢].

والنفي لغة[٣]: الجحد والتنحية والإبعاد والرمي وعدم الحدوث؛ يقال: نفى الشيءَ نفيًا: نحّاه. ونُفي الرجل عن الأرض ونفيتُه عنها: طردتُه فانتفى.

وفُرّق بين النفي والجحد؛ بناء على صدق النافي أو كذبه فيما نفاه؛ "فإذا كان النافي صادقًا فيما قاله، سُمي كلامه نفيًا، وإن كان يعلم أنه كاذب فيما نفاه، سُمي ذلك النفي جحدًا، فالنفي أعمُّ من الجحد؛ لأن كل جحد نفي، وليس كل نفي جحدًا"[٤].

---

(١) الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ٢/ ٣٧٦، المكتبة العصرية، صيدا بيروت.

(٢) قريرة، هدى محمد، أثر النفي على البنية النحوية للجملة العربية، ص ٣، مجلة كلية التربية، العدد ٢٣، سبتمبر ٢٠٢١م.

(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة (نفي)، تحقيق يوسف خياط. دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة (نفي) دار المعارف، ١٩٧٢م.

(٤) عبدالهادي، ثروت، أنماط النفي في الحديث الشريف، ص٣٩، رسالة ماجستير، دار علوم، القاهرة.

وعُرِّف اصطلاحًا بأنه "سلبُ معنى الجملة بإحدى أدوات النفي، وهو خلاف الإثبات"(١). وهو عند ابن يعيش "يكون على حسب الإيجاب؛ لأنه إكذاب له، فينبغي أن يكون على وفق لفظه، لا فرق بينهما إلا أن أحدهما نفي، والآخر إيجاب"(٢).

أما اللغويون المعاصرون فحاول بعضهم إيجاد تعريف للنفي، بناء على المعنى والسياق والأثر النحوي؛ فعرّفه مهدي المخزومي بأنه "أسلوب لغوي تُحدده مناسبات القول، وهو أسلوب نقض وإنكار يُستخدم لدفع ما يتردد في ذهن المخاطب خطأ، مما اقتضاه أن يسعى لإزالة ذلك بأسلوب نفي بإحدى طرائقه المتنوعة الاستعمال"(٣).

ويأتي النفي على وجهين: صريح وضمني؛ فأما الصريح فهو الذي حدده علماء النحو بألفاظ تخصه تسمى بأدوات النفي؛ مثل: لن، لم، ما، ليس ... وهذا النوع من النفي هو الذي اهتم به العلماء، ودُرست ظواهره الملفوظة من الناحيتين اللغوية والنحوية. وأما النفي الضمني فإن السياق يحيل إليه، فهو نفي غير صريح يُفهَم من خلال بعض الأساليب؛ مثل الإضراب والاستثناء والقصر والشرط والاستفهام والتعجب.

٤- التعريف بالاتجاه التداولي:

التداولية اتجاه لساني معاصر يُعنى بدراسة اللغة من خلال مفهوم جديد وهو لسانيات الاستعمال، وتتقاطع مجالاته مع علوم أخرى مثل: البلاغة وتحليل الخطاب وعلم الاجتماع وعلم النفس، لذلك لا نجد تعريفًا موحدًا لها، فهي تتنوع بناء على هذا التداخل المعرفي، كما تتنوع النظريات التي تشكلت داخله. وتعتمد التداولية في المقام الأول على السياق، وعلى علاقة اللغة بمستعملها لتحقيق التواصل والتفاهم.

---

(١) العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، ص ٤٥٦، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩م.

(٢) ابن يعيش، موفق الدين، شرح المفصل، ٨/ ١٠٧، مكتبة المتنبي، القاهرة.

(٣) المخزومي، مهدي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص٢٤٤، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٦م

وتُركّز التداولية على الفعل الكلامي والقصد اللغوي والغاية التواصلية، كما أنها تعطي أهمية للمتحدِّث والمتلقي والسياق والتفاعل الذي يتم بينهم. وبذلك تُدرَس اللغة أثناء الاستعمال ومن خلال السياق والمقام والتفاعل، وهي بذلك تختلف عن المناهج الأخرى التي تركز على الخطاب ومستويات اللغة وإجراءاتها الداخلية.

وعرفها مسعود صحراوي بأنها "منهج لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي يُنجز ضمنها الخطاب، والبحث في العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية"[1].

ونستنتج مما سبق أن التداولية تدرس اللغة من وجهة وظيفية معرفية واجتماعية وثقافية، فهي لا تعنى بجهة واحدة من أوجه العلاقة الكلامية، بل تتضافر عدة أوجه في إنجاح هذه العلاقة، وهي المتكلم والمستمع والسياق والمقام والإنجاز، كما قد تتداخل عوامل أخرى في نجاح هذه العملية، وقد يكون السياق هو العنصر الأهم في التداولية، فبه نعي المفهوم والمقصد من العملية الكلامية، ولا يمكن عزل الفعل الكلامي عن الظروف المكانية والزمانية، وعن المقام الذي قيل فيه، والمشاركين في الحدث اللغوي، والبيئة الخارجية. لذلك فالدراسة التداولية تدرس علاقة العلامات اللغوية عند الاستعمال، وكيفية توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي؛ لأنها تدرس مقاصد المتكلم وفقًا لخبراته ومعتقداته وأفكاره، وقدرة المستقبِل على التلقي والفهم واستيعاب المقصد، وتحليل هذا الفعل الكلامي لفهم ما يقصده المتكلم بألفاظه من خلال هذا السياق، ويعين على ذلك المقام الذي يحدث فيه هذا الفعل الكلامي، وأثر ذلك هو ما يحدد نجاح هذه العملية، وهو ما يُسمى بالإنجاز. فالتداولية دراسة كيفية إيصال الكلام وتفسيره ضمن ظروف معينة وسياق خاص "على صعيد تحديد

---

[1] صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب، (دراسة تداولية لظاهرة الفعال الكلامية في التراث اللساني المعاصر)، ص٥، دار الطليعة، بيروت، لبنان،ط١، ٢٠٠٥م.

الدلالة وفهم تحولاتها وتغيراتها ... حيث تتوجه فيها الدراسات اللسانية إلى العناية بأثر التفاعل الخطابي في موقف الخطاب، ويستطيع هذا التفاعل دراسة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ، ولا سيما المضامين والمدلولات التي يولدها الاستعمال في السياق"[١].

وقد ظهرت التداولية أولًا في علم الفلسفة التحليلية، في أمريكا في إطار علم الفلسفة، وقد مثلها (ويليام جيمس)، و(جون ديوي) و(ريتشارد رورتي)، وفي عام ١٩٣٨ نشر (شارلز موريس) مقالة عرّف فيها التداولية بأنها "العلاقات بين العلامات ومستخدميها، وقد استقرّ في ذهنه أن التداولية تقتصر على ضمائر المتكلم والخطاب وظرفي الزمان والمكان (الآن وهنا)، والتعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئية خارج اللغة نفسها؛ أي: من المقام الذي يجري فيه التواصل"[٢]. ثم اتجهت التداولية اتجاهًا لسانيًّا على يد بينفنيست الذي درسها وفق لسانيات التلفظ. وقد قدم أوستن وكرايس وسيرل عدة مناقشات ومحاضرات وسّعت من آفاق التداولية، وطورّت أبحاثها فجعلت من المتكلم والسياق والمقام والقصد أولى أولوياتها، وعلى يد هؤلاء أُكتُشِفت فحوى التداولية وأسسها.

٥- التعريف بنظرية الأفعال الكلامية:

وضع أوستن نظرية الأفعال الكلامية وتسمى بنظرية الأحداث الكلامية، وهي تُعد من أبرز نظريات التداولية، وطوّرها من بعده سيرل، وتهتم هذه النظرية بالدرجة الأولى بإنجاز المتكلم للفعل الكلامي أو ما يُسمى بالحدث الكلامي، وهي نظرية فلسفية دلالية تهتمّ بالمضامين والمقاصد التواصلية في فهم كلام المتكلم وتحديد مقاصد الخطاب؛ فالفعل الكلامي يجب أن يُراعي غرض المتكلم وقدرته على

---

(١) ابن طالب، عثمان، البراغماتية وعلم التركيب، ص ١٢٥، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية، المطبعة العصرية، تونس، ١٩٨٥م.

(٢) ابن علي، خلف الله، التداولية، ص٢٢٣، مجلة اتحاد الجامعات العربية، مجلد ١٤، ٢٠١٧م.

الإنجاز، من خلال ما يستخدمه من وسائل لغوية تعبر عن مقاصده، وهو ليس "مجرّد دلالات ومضامين لغوية، بل هو فوق ذلك إنجازات وأغراض تواصلية ترمي إلى صناعة أفعال ومواقف اجتماعية أو مؤسساتية أو فردية بالكلمات، والتأثير في المخاطب بحمله على فعل أو تركه، أو دعوته إلى ذلك أو تقرير حكم من الأحكام أو توكيده، أو التشكيك فيه، أو نفيه، أو وعد المتكلم للمخاطب ... ومن منظور التداولية لا تكون اللغة مجرد أداة للتواصل كما تتصورها المدارس الوظيفية، أو رموزًا للتعبير عن الفكر كما تتصورها المدارس التوليدية التحويلية، وإنما هي أداة لتغيير العالم وصنع أحداثه والتأثير فيه"[1]. وتنقسم الأفعال الكلامية وفق هذه النظرية إلى[2]:

- أفعال إخبارية تقريرية: وهي أفعال تصف واقعة معينة أو تقرر حدثًا أو تخبر عنه.
- أفعال توجيهية طلبية: وهي أفعال التي توجه المخاطب إلى أداء فعل معين.
- أفعال التزامية وعدية: وهي أفعال تشتمل على التزام بوعد أو وعيد أو فعل مستقبلي.
- أفعال تعبيرية إفصاحية: وهي الأفعال التي تعبر عن حالة نفسية أو شعورية ما.
- أفعال إعلانية تصريحية: وهي الأفعال التي تهدف إلى إحداث تغيير في العالم الخارجي وبناء سلوك جديد.

---

[1] ابن علي، خلف الله، التداولية مقدمة عامة، ص٢٢٤.

[2] فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص ٦٦، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط١، ٢٠٠٧م.

المحور الأول: أنماط النفي الصريح

يكون النفي الصريح باستخدام أدوات النفي المعروفة، مثل: (لا، ليس، غير، لم، لمّا، لن، لام الجحود، ما، لات). وهذه الأدوات منها ما يدخل على الاسم، ومنها ما يدخل على الفعل الماضي أو المضارع، أما فعل الأمر فلا يُنفى؛ لأنه من أساليب الإنشاء.

وسوف تتناول الدراسة التداولية للنفي ما يتعلق بنظرية الفعل الكلامي التي تمثل فحوى التداولية؛ حيث نُحدّد صيغة الفعل الكلامي المنفي، ومقاصده الخطابية الظاهرة والضمنية والتأثيرية والاستلزامية، وكيفية إنجاز هذه المقاصد.

١– أنماط النفي الصريح في الجملة الاسمية:

أ– النفي باستخدام (لا) النافية للجنس:

لا النافية للجنس حرف نفي يدخل على الجملة الاسمية، فيفيد النفي على سبيل الاستغراق، وهو يقابل (إنّ) التي تفيد تأكيد الإثبات، أما هو فيفيد تأكيد النفي، لذا فهو يعمل عملها في نصب المبتدأ ورفع الخبر، إلا أنه في المعنى يفيد العكس، فـ(لا) النافية للجنس تنفي على سبيل التنصيص والشمول، فيُراد بها النفي عن جميع أفراد الجنس نفيًا صريحًا، وتسمى أيضًا (لا) التبرئة؛ لأنها تفيد تبرئة المتكلم للجنس وتنزيهه عن الاتصاف بالخبر. ولعملها شروط: أن يكون النفي بها على سبيل الاستغراق، وليس على سبيل الاحتمال، أن يكون اسمها وخبرها نكرتين، فهي لا تعمل في المعرفة، وألا يُفصل بينها وبين اسمها بفاصل، وألّا يدخل عليها حرف جر، فإذا دخل أبطل عملها. ويُبنى اسم (لا) على ما يُنصب به، ماعدا جمع المؤنث السالم فاختلف في علامة البناء على آراء: الأول: يجب فيه البناء على الفتح، والثاني: يجب بناؤه على الكسر، والثالث: جواز الأمرين. ومن نماذج (لا) النافية للجنس في رياض الصالحين:

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك"[١].**

والنفي هنا على سبيل الشمول والاستغراق، فليس هناك ملجأ للإنسان سوى الله على الإطلاق، ويُحتّم السياق هنا استخدام (لا) النافية للجنس لتحقيق هذه الدلالة. والفعل الكلامي هنا: (لا ملجأ ولا منجى) هو فعل إخباري تقريري[٢] يقرر انتفاء اللجوء والنجاة إلا من الله عز وجل، وهو أيضًا فعل إعلاني تصريحي[٣] يحمل المخاطب على اللجوء له سبحانه وتعالى والفرار من كل شيء إلا منه. وأما الفعل الإنجازي: فيتوجه نحو المخاطبين لإنجاز هذا المعنى التداولي المشار إليه؛ وهو أنه لا لجوء ولا نجاة إلا بالله عز وجل. وأما الفعل التأثيري فيتعلق بإبراز الشعور بالتذلل والخضوع لله عز وجل، وإقناع المتلقي بفحوى الفعل الكلامي؛ حيث يُوجّه الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين من خلال هذا النفي الشامل إلى اللجوء إلى الله عز وجل، وقد تحققت القصدية هنا من خلال الفعل الكلامي ومن خلال التأثير في المخاطبين أيضًا.

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة،**

---

(١) النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص ٤٢، رقم الحديث ٨٠.

(٢) الفعل الإخباري التقريري من منظور التداولية يعني: الأحداث الإنجازية التي من قبيل الإخبار أو الوصف أو التقرير أو تقوية الحكم وما أشبه ذلك. فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص ٦٦، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط١، ٢٠٠٧م.

(٣) الفعل الإعلاني التصريحي من منظور التداولية يعني: الحدث الكلامي الذي يهدف إلى إيصال فكرة إلى المخاطب بغرض إحداث تغيير في سلوكه وتصوره للأشياء. فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص ٦٦.

ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته..."[١].

بناء على بيئة العربي ووفقًا لتفكيره وقناعاته رأى الصحابة انحصار الإفلاس في القيمة المادية؛ حيث كان تصور الصحابة للمفلس تصورًا ماديًّا محضًا، وهذا واضح في الفعل الكلامي (لا درهم له ولا متاع)، وهو فعل يقتضي التحقير المادي من شأن المفلس، فجاء التوجيه النبوي ردًّا على هذا الفعل الكلامي القائم على النفي بهدف التقرير والإخبار ببيان الحال الحقيقية للمفلس، وبهدف الإعلان والتصريح لتصحيح تصور الصحابة وإخبارهم أن الإفلاس إنما هو إفلاس الحسنات، وليس الإفلاس المادي، وقد بدأ رسول الله حديثه بالاستفهام لشد انتباه السامع لما يود أن يوصله له، كما أنه صلى الله عليه وسلم يرغب في مشاركة المخاطبين له من خلال الحوار.

ويمكن أن نشير أيضًا إلى أن هذا الفعل الكلامي يشتمل على فعل التزامي[٢]، وهو بيان الوعيد الذي ينتظر هذا المفلس يوم القيامة؛ حيث يُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته .... إلخ الحديث.

ب- النفي باستخدام (ليس):

(ليس) فعل يدخل على الجملة الاسمية ويفيد نفي ثبوت النسبة القائمة بين المبتدأ والخبر، وهي أداة عاملة ناسخة ترفع المبتدأ ويسمى حينئذ في التحليل النحوي اسمها، وتنصب الخبر ويسمى حينئذ خبرها. والنفي بها له أربع دلالات:

---

(١) النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص٨٤، رقم الحديث ٢١٨.

(٢) الفعل الالتزامي من منظور التداولية هو كل فعل يشتمل على أفعال الوعد والوعيد والبشارة وأفعال الجزاء ثوابًا أو عقابًا، وأفعال العهد، وما أشبه ذلك. صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ص ٢٣٤، دار التنوير للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.

* نفي الحال: نحو: ليس أخوك حاضرًا؛ حيث نفت في الحال ثبوت نسبة الحضور إلى الأخ، وذلك لأن النفي قد جاء خاليًا من أية قرينة لفظية، وهنا يكون الإخبار عن هذا النفي والنفي كلاهما قائمًا في الحال.

* نفي الماضي: نحو: ليس أخي قد سافر أمس؛ حيث نفت السفر عن الأخ بالأمس، وقد تعين ذلك لوجود قرينة هي (أمس)، وهنا يكون الإخبار عن هذا الخبر بعد أن تحقق عدم سفر الأخ.

* نفي الاستقبال: نحو: لست ذاهبًا إليه غدًا؛ حيث وجدت قرينة لفظية هي (غدًا)، فتعين نفي ثبوت نسبة ذهاب المتكلم إليه في المستقبل، وهنا يكون الإخبار عما لن يحدث قبل ألا يكون.

* النفي المستمر: نحو قوله تعالى: "وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلّامٍ للعَبِيد"[1]؛ لأن هذه حقيقة من الحقائق الثابتة التي لا ترتبط بزمن، وكذلك نحو قوله تعالى: "وَلَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنثَى"[2].

ومن نماذج (ليس) النافية للجملة الاسمية في رياض الصالحين:

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابرًا محتسبًا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد"[3].**

استفتح الفعل الكلامي في هذا الحديث باستخدام (ليس) وذلك في قوله: (فليس من عبد ...)، واسم (ليس) هنا مجرور لفظًا بحرف الجر الزائد (من) مرفوع محلًّا، وهناك صفة محذوفة والتقدير: (فليس من عبد مسلم ...). ومن خلال هذا النفي جاء الخطاب التداولي للإخبار والتقرير بوجوب بقاء من أصابه الطاعون في مكانه،

---

(1) آل عمران، ١٨٢.

(2) آ عمران، ٣٦.

(3) النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص٢٧، رقم الحديث٣٣.

وأن يكون بقاؤه هذا صبرًا واحتسابًا لله عز وجل، فقصدية الخطاب هنا إظهار مشاعر الإيمان والصبر والاحتساب.

وهذا الفعل الكلامي كما يبدو هو فعل طلبي توجيهي[١] غرضه الصبر على المصيبة واحتساب الأجر عند الله عز وجل؛ "قال بعض العلماء: إنّ الصابر في الطاعون يأمن من فَتَّان القبر؛ لأَنه نظير المرابطة في سبيل الله"[٢].

كما يتضمن النفي هنا فعلًا التزاميًّا بوعد الله لمن يفعل هذا بأن له مثل أجر الشهيد. ويُفهم من الفعل الإنجازي للنفي هنا أن منع الدخول مقصود ضمنًا، وهو مفهوم من منع الخروج؛ قال النووي: "منعُ القدوم على بلد الطاعون ومنع الخروج منه فرارًا من ذلك"[٣]. أي: أن منع القدوم على بلد الطاعون إنما هو من باب أنه إلقاء للنفس في التهلكة، ومنع الخروج فرارًا من قدر الله لا ينبغي أن يكون؛ لأن المرء مهما فرّ من قدر الله فإنه ملاقيه، أي: أن الفرار لن يغني عن صاحبه من الله شيئًا.

ومن مضامين هذا الفعل التداولي بيان ان حياة الإنسان غالية؛ وذلك أنه نزل الطاعون ببلد فإن أول ما يفكر فيه أهل هذه البلد هو الهرب، خوفًا من الطاعون. فإذا صبروا واحتسبوا الأجر وعلموا أنه لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم، ثم ماتوا بهذا الطاعون، فإن لهم مثل أجر الشهيد، وهذا من عظيم نعم الله عز وجل على عباده.

---

(١) الفعل التوجيهي الطلبي من منظور التداولية يعني: أن الأحداث الكلامية تحمل المخاطب على أداء فعل معين. فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص ٦٦.

(٢) النجدي، فيصل بن عبدالعزيز، تطريز رياض الصالحين، ص٤٣، تحقيق عبد العزيز بن عبد الزير آل حمد، نشر دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

(٣) النووي، أبو زكريا، شرح صحيح مسلم، ١٤/ ٢٠٥.

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"[١].**

في تداولية النفي هنا تقرير وإخبار بأن القوة الحقيقية لا يكون بالصُّرعة، (والصُّرَعة) بوزن (فُعَلة) بمعنى (فاعل)؛ أي: أنه الذي يصرع الناس ويغلبهم بقوة بدنه. وفي هذا الخطاب التداولي تصحيح للتصور القاصر للقوة، فإن القوة الحقيقية أن يملك المرء نفسه عند الغضب بالحلم وسعة الصدر والصبر، فالرسول صلى الله عليه وسلم ينفي القوة عن الإنسان سريع الغضب ويحصرها فيمن يصبر ويتحكم في نفسه وغضبه، فالنفي جاء ليحقق وظيفة تداولية اكتنفها هذا الفعل الكلامي التوجيهي الطلبي من خلال توجيه المتلقي إلى ضبط النفس، وإقناعه بأن القوة لا تكمن في الغضب النفسي أو الشدة البدنية، بل تكمن في التحلُّم والصبر وسعة الصدر والأناة والتريُّث.

ومن مقاصد امتلاك الإنسان لقوة نفسه وكبح جماحها النجاة من معاطب الغضب ومهالكه؛ فإن الإنسان حال غضبه يخرج عن اعتداله وانضباطه، ويتكلم بالباطل، بل ربما يرتكب المحظورات الفعلية من السب والشتم والقتل، هذا فضلًا عن إثارة الأحقاد والبغضاء وغير ذلك من القبائح المحرمة. أما إذا امتلك الإنسان نفسه فقد "قهر أقوى أعدائه وشر خصومه، ولذا قيل: أعدى عدوّ لك نفسك التي بين جنبيك"[٢].

ج- النفي باستخدام (ما):

الأصل في (ما) أن تكون للنفي، ولكنها قد تخرج من النفي إلى معان أخرى كالشرط والاستفهام والتعجب والموصولة، وإذا دخلت على الجملة الاسمية فقد تكون مهملة

---

(١) النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص٣١، رقم الحديث٤٥.

(٢) القسطلاني، أبو العباس أحمد بن محمد، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٩/ ٧١، نشر المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة السابعة، ١٣٢٣هـ.

أي: لا أثر إعرابي لها وهي (ما) التميمية، وقد تكون عاملة وهي (ما) الحجازية تشبيهًا بـ (ليس)، فترفع المبتدأ وتنصب الخبر. وهي في كلتا الحالتين لنفي الحال. و"(ما) هذه وإن كانت مشبهة بـ (ليس)، وتعمل عملها فهي أضعف عملًا منها؛ لأن (ليس) فعل، و(ما) حرف، ولذلك من الضعف إذا قدم خبرها على اسمها، أو دخل حرف الاستثناء بين الاسم والخبر، بطل عملها وارتفع ما بعدها بالابتداء والخبر؛ نحو قولك: ما قام زيد، وما مسيء من أعتب، وما زيد إلا قائم، قال تعالى: "وما مُحَمَّدٌ إِلا رسُولٌ"[١]، وأما (ليس) فإنها تعمل على كل حال"[٢].

ومعنى هذا أن نفي (ما) للجملة الاسمية على ضربين: الأول: نفي مع إهمال، والثاني: نفي مع إعمال؛ فالأول نحو: ما الدرس صعبٌ، والثاني نحو: ما الدرس صعبًا، لا فرق بين هاتين الجملتين من حيث المعنى الذي هو النفي الحاصل في الحاضر أو الحال؛ إذ كلاهما يفيد نفي الصعوبة عن الدرس في الحال؛ بحيث يكون انتفاء الصعوبة عن الدرس حاصلة في ذات الزمن الذي يخبر فيه المتكلم عن ذلك. غير أن (ما) في الجملة الأولى لم تنصب الخبر وهذه لغة تميم، وأما في الجملة الثانية فقد عملت النصب في الخبر على لغة أهل الحجاز.

ومن نماذج (ما) الداخلة على الجملة الاسمية في رياض الصالحين أذكر ما يلي:

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "ما من مسلم يصيبه أذى؛ شوكة فما فوقها إلا كفّر الله بها سيئاته، وحُطت عنه ذنوبه كما تحطّ الشجرة ورقها"[٣].**

يتجلى الفعل الكلامي هنا في (ما من مسلم ...)؛ حيث دخلت (ما) النافية على اسم، وهو (مسلم) المجرور بحرف الجر الزائد (من)، و(مسلم) نكرة وردت في سياق

---

(١) آل عمران، ١٤٤.

(٢) ابن يعيش، موفق الدين، شرح المفصل ١/ ٢٦٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.

(٣) النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ٢٨، رقم الحديث ٣٨.

النفي وهذا يقتضي العموم، فمن تصدُق عليه كلمة الإسلام دخل تحت هذا الخطاب، واستحق هذا الوعد الالتزامي كفّر الله سيئاته، وحطّ عنه ذنوبه. وكلمة (أذى) نكرة للتقليل؛ وهذا يعني أن قلة الأذى ليست مانعة من استحقاق الجزاء، فكل ما يصيب المسلم من أذى أو مرض يقابله الله بتكفير ذنوبه صغيرها وكبيرها، فإن كرم الله واسع، وكما قالوا: "حدِّثْ عن الكريم بما شئت"[١].

ومما يتضمنه هذا الفعل الكلامي تقرير أن الله عز وجل لم يخلق عباده في هذه الحياة لتعريضهم للآلام والمشاقّ والأمراض، فإذا أصاب أحدَهم شيء من ذلك كوفئ بتكفير الذنوب وحط الخطايا؛ فإن الجزاء في مقابل البلاء. كما أن هذا الفعل الكلامي فعل تصريحي إعلاني يحمل المخاطب على تحمل الأذى طلبًا للظفر بهذا الوعد الإلهي المشتمل على هذا الجزاء العظيم. أما الفعل التأثيري فيتجلى في التأثير على المتلقي بتزيين الصبر له وتحبيب تحمل الأذى إليه حتى يستحق هذا الجزاء، ويُعدّ هذا الجزاء وسيلة من وسائل الإقناع والتحفيز لإنجاز المطلوب؛ فإن للصبر على الأَمراض والأَعراض فضلًا عظيمًا في تكفير السيِّئات وحطّ الذنوب.

ومن وسائل تقريب الفعل الكلامي هنا استخدام التشبيه التمثيلي؛ قال القسطلاني: "هو تشبيه تمثيل؛ لانتزاع الأمور المتوهمة في المشبه من المشبه به، فوجه التشبيه الإزالة الكلية على سبيل السرعة لا الكمال والنقصان؛ لأن إزالة الذنوب عن الإنسان سبب، كما أن إزالة الأوراق عن الشجر سبب"[٢].

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "ما من شيء أثقلُ في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيّ"[٣].**

---

(١) القسطلاني، أبو العباس أحمد بن محمد، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٨/ ٣٥٣.

(٢) القسطلاني، أبو العباس أحمد بن محمد، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٨/ ٣٤٣.

(٣) النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص١٨٦، رقم الحديث ٦٢٦.

تتضمن تداولية النفي في هذا الحديث الشريف حث رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين على حسن الخلق، من خلال دعوتهم إلى الالتزام بالأخلاق الحسنة؛ لأن فيها الخير الكثير، والبعد عن الفحش والبذاءة، وهي أفعال إنجازية يستهدفها الخطاب النبوي هنا، ومن الأفعال الإنجازية أيضًا ترسيخ فضيلة حسن الخلق في أذهان المخاطبين، وأَنه يورث صاحبه محبة الله ومحبة عباده، وترسيخ قبح الفحش والبذاءة، وأَنهما يورثان البغض من الله وعباده.

ومن وسائل إقناع المخاطب بأهمية حسن الخلق ما أشار إليه الخطاب النبوي من أن لحسن الخلق ثقلًا عند الله سبحانه وتعالى؛ فإنه لن يذهب سدى؛ حيث جعل له جِزْمًا ومادة، وهذا فعل التزامي وعدي. ومن وسائل ترسيخ حسن الخلق الإشارة إلى ضرورة اقترانه بالبعد عن فحش اللسان وقبيح الألفاظ؛ فإن (البَذِيّ) الوارد في الحديث يُراد به: من يتكلم بالفُحش ورديء الكلام.

كما يحمل الفعل الكلامي هنا معنى التوجيه والطلب؛ وذلك بالحث على مكارم الأخلاق والبعد عن مذامّ اللسان، فإن الكلمة إذا خرجت من اللسان ملكت صاحبها، وإذا لم تخرج ملكها هو. ويحمل أيضًا معنى التعبير والإفصاح[١] وغايته التنفير من فاحش الكلام، والترغيب في حسن الخلق.

٢– أنماط النفي الصريح في الجملة الفعلية:

أ– النفي باستخدام (لا):

(لا) حرف نفي يدخل على الفعل الماضي فينفي دلالته، كما يدخل على الفعل المضارع فينفي دلالته أيضًا، دون أن يكون له أثر في العمل في الفعلين، ولا يدخل على فعل الأمر. قال ابن يعيش: "وأما (لا) فحرفٌ نافٍ موضوعٌ لنفي المستقبل؛

---

[١] الفعل التعبيري الإفصاحي من منظور التداولية يعني: اشتمال الفعل الكلامي على حالة نفسية وشعورية للمتكلم، أو حالة نفسية وشعورية يراد توجيهها للمخاطب. فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص ٦٦.

قال سيبويه: وإذا قال: هو يفعل، ولم يكن الفعل واقعًا فنفيه لا يفعل، فـ (لا) جواب هو يفعل، إذا أريد به المستقبل. فإذا قال القائل: يقوم زيد غدًا، وأريد نفيه قيل: لا يقوم؛ لأن (لا) حرف موضوع لنفي المستقبل، وكذلك إذا قال: ليفعلنّ، وأريد النفي قيل: لا يفعل؛ لأن النون تصرف الفعل للاستقبال، وربما نفوا بها الماضي نحو قوله تعالى: "فلا صَدَّقَ ولا صَلَّى"[1]؛ أي: لم يصدق ولم يصلِّ ... حملوا (لا) في ذلك على (لم)، إلا أنهم لم يُغيّروا لفظ الفعل بعد (لا)، كما غيروه بعد (لم)؛ لأن (لا) غير عاملة و(لم) عاملة، ولذلك غيروا لفظ الفعل إلى المضارع ليظهر فيه أثر العمل"[2].

والتحقيق أن (لا) النافية الداخلة على المضارع تنفي الحال والاستقبال والاستمرار.

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"[3]**

الفعل الكلامي هنا (لا ينظر إلى أجسامكم ...) وهو فعل كلامي دخلت فيه (لا) النافية على جملة فعلية فعلها مضارع، وهو فعل تقريري إخباري يراد به معنى إنجازي وهو أن مقياس التفاضل بين الناس عند الله عز وجل يكون بالأعمال والقلوب لا بالأجسام والصور. كما أنه فعل إعلاني تصريحي يراد به تغيير سلوك المسلم الذي يغلّب جانب الظاهر على جانب الباطن، ببيان أن هناك فاضلًا ومفضولًا.

والخطاب النبوي هنا لا يعني ترك الاعتناء بالظاهر، بل يعني أن الاعتناء بالقلب والعمل مقدم على أي اعتناء فهُما لهما الأهمية والتقديم؛ لأن محكّ النجاة والفوز منوط بصلاحهما. والمسلم مأمور بإصلاح ظاهره وهيئته كما أنه مأمور بإصلاح

---

(1) القيامة، ٣١.

(2) ابن يعيش، موفق الدين، شرح المفصل، ٥/ ٣٣.

(3) النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص١٣، رقم الحديث ٧.

باطنه، غير إن إصلاح ظاهره لا ينبغي أن يشغله عن إصلاح باطنه، فالحديث هنا عن المقدَّم والمهم، لا عن فعل أمر وترك آخر.

ويفهم من هذا أن الأعمال الظاهرة رغم أن لها دوره في بيان سمت المسلم، لكنها لا تحصل بها التقوى على وجه الضرورة، وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته. ونظر الله تعالى هنا من منظور التداولية هو فعل التزامي وعدي يراد به: "مجازاته ومحاسبته؛ أي: إنما يكون ذلك على ما في القلب دون الصور الظاهرة، ونظر الله رؤيته المحيطة بكل شيء، ومقصود الحديث أن الاعتبار في هذا كله بالقلب"(١).

ومن المعاني الضمنية التي تُثيرها تداولية النفي هنا ضرورة "الاعتناء بحال القلب وصفاته، وتصحيح مقاصده، وتطهيره عن كل وصف مذموم؛ لأن عمل القلب هو المصحح للأعمال الشرعية، وكمال ذلك بمراقبة الله سبحانه وتعالى"(٢).

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"(٣).**

الفعل الكلامي (لا يعنيه) دخلت فيه (لا) النافية على جملة فعلية، وتقتضي تداولية النفي هنا أن المسلم الحق هو الذي يترك ما لا يعنيه من فضول القول والفعل، وأن هذا الالتزام منه دليل على حُسن إسلامه. ويفهم ضمنًا أن هذا دليل على حسن تعقُّله وتدبيره لأموره؛ لأن الحكيم العاقل يحفظ وقته من الضياع، فهو أثمن ما يملك. وهذا الفعل الكلامي هو في ظاهره فعل توجيهي طلبي بما يتضمنه من التوجيهات النبوية السامية، وفي فحواه فعل إعلاني تصريحي بما يهدف إليه من تعديل سلوك المخاطبين به، وإحداث تغيير في عالمهم بالدعوة إلى تحسين أخلاقياتهم في القول والفعل. لقد أسهم النفي في إقناع المتلقي بعدم التدخل في شؤون الآخرين، وعدم

---

(١) النووي، أبو زكريا، شرح صحيح مسلم، ١٦/ ١٢١.

(٢) النجدي، فيصل بن عبدالعزيز، تطريز رياض الصالحين، ص١٤.

(٣) النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص٣٨، رقم الحديث ٦٧.

تتبع فضول القول والفعل فيما لا ينفع لا في دنيا ولا في آخرة، فالوظيفة التداولية بينت ما يجب أن تكون عليه أخلاق من الاهتمام بخاصة نفسه والنأي عن خاصة الآخرين، فالتطفل ليس من صفات المسلم.

وتداولية النفي هنا تتضمن بعدًا حضاريًّا مهمًّا في بناء الأمم والنهوض بها، وذلك بالتركيز على النافع المفيد الذي يأخذ بالأمة نحو الأمام، وينأى بها عما يشغلها أو يعطلها عن مسيرتها. كما يتضمن بعدًا اجتماعيًّا مهمًّا في جمع لحمة الأمة وسد الثغرات التي تؤدي بها إلى تفرقها ونشر البغضاء بين أبنائها؛ فإن فضول القول والعمل مدخل إلى لغو الحديث والغيبة والنميمة وقول الزور وتتبع عورات الناس وغير ذلك مما يفكك المجتمعات ويقضي عليها.

ب- النفي باستخدام (لم):

(لم) حرف جزم ونفي وقلب، يدخل على المضارع فينفي دلالته ويقلبه إلى الماضي ويجزمه. فأما النفي فمعناه: نفي ثبوت النسبة بين المسند (المضارع) والمسند إليه (الفاعل أو نائبه). وأما القلب فمعناه: قلب زمن المضارع الدال على الحال أو الاستقبال إلى المضيّ، أي: يُخلّص المضارع للدلالة على المضي، ويظل المضارع مضارعًا من حيث اللفظ؛ أي: أنه فعل مضارع مجزوم بـ (لم)، ولكنه من حيث المعنى يصير ماضيًا. وأما الجزم فالمراد به تغيير حالته الإعرابية فيكون آخره ساكنًا أو محذوف العلة أو محذوف النون. ومن نماذج (لم) في رياض الصالحين:

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يُفلته"**[1].

الفعل الكلامي (لم يفلته) فعل التزامي يتضمن وعيدًا للظالمين بأن أخذهم لا إفلات منه، فهو أخذ عزيز مقتدر. وهو أيضًا فعل إعلاني تصريحي هدفه إحداث تغيير في حياة الظالمين حين يعلمون حرمة الظلم فيتجنبونه ويردون المظالم إلى أهلها، وفيه استنطاق للعقل البشري بعدم الأمن من مكر الله عز وجل، ومن كان غير

---

[1] النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص٨١، رقم الحديث ٢٠٧.

آمن فإن العقل يدفعه إلى المسارعة بالتوبة والرجوع إلى الله والإنابة والتحلل ممن ظلمهم.

ومن المقاصد الضمنية في هذا الخطاب أن إملاء الله للظالمين دليل على بغضه لهم، فإن في هذا الاستدراج زيادة لآثامهم فيتضاعف لهم العذاب، وربما كان ذلك من باب إعطائهم الفرصة ومنحهم الوقت للرجوع والإنابة إليه، فيكون دليل حب لهم.

وفي خطاب النفي هنا قوة تأثيرية فإن الفعل الكلامي (لم يفلته) غايته التخويف من مغبة الظلم والتحذير من عقاب الله وسوء العاقبة، وعدم الانخداع بالاستدراج والإمهال، ولا ريب أن للتهديد أثره الفعال في النفس الإنسانية فهو عامل قوي من عوامل الردع والزجر، وكسر النفس عن سوراتها وعدوانها، وتهذيب غرورها وطغيانها.

وجاء النفي هنا جوابًا للشرط اليقيني الذي استُخدمت فيه الأداة (إذا)، وإذا كان الشرط يقينيًّا فإن الجواب لابد أن يتحقق. لقد استطاع الخطاب النبوي في إيجاز شديد للعبارة وتكثيف لألفاظها أن ينجز هذه الأفعال الكلامية المتنوعة بمقاصدها وغاياتها.

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا"**[1]

هنا فعلان كلاميان (لم يرحم صغيرنا)، و(لم يعرف شرف كبيرنا) دخلت فيها (لم) على فعلين مضارعين، وذلك أن العطف يقتضي تكرار أداة النفي (لم)، فكأنه قال: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا وليس منا من لم يعرف شرف كبيرنا).

وقد اشتمل هذان الفعلان على كل الأحداث الكلامية التي حددتها التداولية؛ فهما:

أولًا: فعلان إخباريان لاشتمالهما على تقرير حال من لم يرحم الصغير ويكرم الكبير؛ بأنه لا يتصف بصفات أهل الإسلام ومحاسن أخلاقهم.

وثانيًا: فعلان توجيهيان لاشتمالهما على طلب الإشفاق على الصغير وإجلال الكبير.

---

[1] النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص١١٨، رقم الحديث ٣٥٥.

وثالثًا: هما فعلان التزاميان لاشتمالهما على الوعيد الذي سيلحق هاتين الفئتين المخالفتين لسُنّة الإسلام وهَدْيه في معاملة الصغير والكبير. وهذا الوعيد له قدر كبير في التأثير في نفس المخاطب.

ورابعًا: هما فعلان إعلانيان لاشتمالهما على التصريح بضرورة تغيير هذا السلوك المنافي لتعاليم الإسلام.

ومن الأفعال الضمنية التي يمكن أن نستنبطها هنا أن رحمة الصغير تتضمن كل ما فيه شفقة عليه من إحسان وملاطفة ولين جانب وعطف، كما أن احترام الكبير يتضمن إجلاله وتعظيمه وإكرامه وتوقيره. ومنها: أن الكبير قد يكون في السنّ أو في المقام أو في العلم. ومنها: أن هذا السلوك قد يكون بالقول كما يكون بالفعل. ومنها: أن ارتكاب هذا السلوك المخالف لتعاليم الإسلام قد يُعرض أصحابه لغضب الله عز وجل وعقوبته. ومنها: أن هذا السلوك مردُّه إلى قلب الإنسان؛ فإن الرحمة وما يلحق بها إنما تنبع منه، وقلب الإنسان إذا صلح صلح عمله، وإذا فسد فسد عمله.

ومنها: أن الإسلام يدعو إلى الرقي في التعامل، ويهتم بما يسعد الإنسان ويؤثر في مشاعره، ويُنفِّر من كل ما ينغِّص عليه حياته صغيرًا كان أو كبيرًا. ومنها: أن ارتكاب هذا السلوك المشين لا يُخرج من الإسلام يعني لا يُحكم بكفر فاعله، وإنما شُبِّه به للدلالة على شناعة هذا السلوك وقبحه وسوئه. ومنها: أن هذا الصغير مقبل على الحياة، فليُقبل عليها وكلُّه بهجة وتفاؤل بالمستقبل وبمجتمعه، كما أن الكبير مُدبر عن الحياة فليفارقها بذكرى حسنة وعلاقة طيبة.

ج- النفي باستخدام (لن):

(لن) حرف نصب ونفي واستقبال، والأصل في عمله نصب المضارع، ويفيد مع النصب ثلاثة معان: الأول: النفي؛ أي: نفي ثبوت الفعل إلى الفاعل أو نائبه. الثاني: تخليص زمن الفعل المضارع للاستقبال بعد أن كان يحتمل الدلالة على

الحال أو الاستقبال؛ بحيث يكون معنى النفي واقعًا في المستقبل. الثالث: التأكيد؛ قال الزمخشري: "و(لَنْ) لتأكيد ما تعطيه (لا) من نفي المستقبل؛ تقول: لا أبرح اليوم مكاني، فإذا وكدت وشددت قلت: لن أبرح اليوم مكاني. قال الله تعالى: (لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ)[١]، وقال تعالى: (فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي)[٢]"[٣].

وقال ابن يعيش: "(لن) معناها النفي، وهي موضوعة لنفي المستقبل، وهي أبلغ في نفيه من (لا)؛ لأن (لا) تنفي (يفعل) إذا أريد به المستقبل، و(لن) تنفي فعلًا مستقبلًا قد دخل عليه السين وسوف، وتقع جوابًا لقول القائل: (سيقوم زيد وسوف يقوم)، والسين وسوف تفيدان التنفيس في الزمان، فلذلك يقع نفيه على التأبيد وطول المدة؛ نحو: (ولن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)[٤]"[٥]. ومن نماذج (لن) في رياض الصالحين:

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب"**[٦].

الفعل الكلامي هنا (لن يملأ فاه إلا التراب) دخلت فيه (لن) النافية على فعل مضارع فنصبته ونفت دلالته وحوّلتها إلى المستقبل.

---

(١) الكهف: ٦٠.

(٢) يوسف: ٨٠.

(٣) الزمخشري، جار الله، المفصل في صنعة الإعراب، ص ٤٠٧، دار الهلال، بيروت، ١٩٩٣م.

(٤) البقرة: ٩٥.

(٥) ابن يعيش، موفق الدين، شرح المفصل، ٥/ ٣٧.

(٦) النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص ٢٢، رقم الحديث ٢٣.

وهو فعل إخباري يقرر حقيقة الطمع والجشع عند الإنسان، فإنه لن يصل إلى حالة الشبع والارتواء مهما امتلك. فالفقر هنا فقر نفسي والجوع جوع ذاتي كامن فيه. كما أنه فعل توجيهي يدعو المخاطبين إلى الزهد في متع الحياة والقناعة بما في أيديهم. وهو فعل إعلاني تصريحي يهدف إلى تعديل سلوك الإنسان بالرضا بما يملك ومقاومة الحرص والشَّرَه.

ومن الأفعال الضمنية التي نستنبطها هنا أن رغبة الإنسان في الاستكثار والتملك والغنى أمر مركوز في فطرته، وأنه على العاقل أن يجاهد هذه الرغبة ويقاومها حتى يتغلب عليها، وإلا تغلبت عليه وقهرته وجعلته عبدًا لشهواته. ومنها: أن الغالب فيمن لديه طمع في المال أنه لا يحترز من الكسب المحرّم ولا من الإنفاق في المحرّم. ومنها: أن إزالة هذه الرغبة المركوزة في غريزة الإنسان ممكنة وليست مستحيلة، ولذلك قال: (ويتوب الله على من تاب).

ومن الأفعال التأثيرية في الخطاب النبوي هنا: استخدام أداة الشرط (لو)، التي تفيد النفي الضمني وتؤكد على مدى طمع الإنسان ورغبته في المزيد وتظهر مشاعر الجشع الكامنة فيه. ومنها: تمثيل حال الإنسان بحال من يمتلك واديًا من الذهب وهو في الوقت نفسه يطمع في امتلاك ثان وثالث. ومنها: الكناية بكلمة (واديًا) عن كثرة ما يملكه الإنسان، والكناية بكلمة (التراب) عن حقارة ما يلهث خلفه ويسعى وراءه جاهدًا، والتراب أيضًا فيه تذكير له بمبدأ خلقه ونهايته حيث يُدفن فيه، فإن مصير ما يجمعه لا محالة إلى التراب. ومنها: بيان أن حالة الرضا التي يصل إليها الإنسان إنما هي نعمة من الله عز وجل (ويتوب الله على من تاب)، والإشارة بالتوبة إلى أن الفرصة ما زالت قائمة وعلى الإنسان أن يتحرر من نوازع نفسه ويبادر إلى التوبة حتى يتوب الله عليه.

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "عليك بكثرة السجود؛ فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط بها عنك خطيئة"**[١].

الفعل الكلامي هنا (لن تسجد لله سجدة ...) دخلت فيه (لن) النافية على فعل مضارع، وهذا الفعل الكلامي تجلت فيه أربعة أحداث كلامية من الأحداث التي قررتها التداولية، فهو:

فعل إخباري يقرر أن السجود لله يرفع درجات صاحبه ويحط عنه خطاياه. وهو فعل توجيهي بما يتضمنه من طلب السجود لله عز وجل. وهو فعل التزامي بما يتضمنه من الوعد برفع الدرجات وحط الخطايا. وهو فعل إعلاني بما يتضمنه من الدعوة إلى تغيير سلوك المخاطبين في العالم الخارجي بالمبادرة إلى عبادة الله والتقرب إليه.

ومن الأفعال الضمنية التي نستنبطها من هذا الفعل الكلامي: أن السجود يشير إلى التقرب إلى الله بكل قول وفعل. ومنها: أن السجود رمز الخضوع، والخضوع لله هو الذي يحقق رفعة العبد. ومنها أن جزاء الله أتم وأوفى وأكبر من فعل العبد؛ فإن فعلًا واحدًا يقوم به العبد يعطيه المولى عز وجل به جزاءين: الرفعة عنده سبحانه، وحط الخطايا عنه. ومنها: أن "الإنسان يحصل له الكمال بزوال ما يكره وحصول ما يحب، فرفع الدرجات مما يحبه الإنسان، والخطايا مما يكرهه، فإذا رفع له درجة وحط عنه بها خطيئة؛ فقد حصل على مطلوبه، ونجا من مرهوبه"[٢].

ومن الأفعال الاستلزامية: أن كثرة السجود "تستلزم كثرة الركوع والقيام والقعود؛ لأن كل ركعة فيها سجودان، وفيها ركوع واحد، ولا يمكن أن تسجد في الركعة الواحدة ثلاث سجدات أو أربعًا، إذن كثرة السجود تستلزم كثرة الركوع والقيام والقعود"[٣].

---

(١) النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص ٥٠، رقم الحديث ١٠٧.

(٢) ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، ١٠٦/٢، دار الوطن، الرياض، ١٤٢٦هـ.

(٣) ابن عثيمين، محمد بن صالح، شرح رياض الصالحين، ٢/ ١٠٥.

د- النفي باستخدام (ما):

تدخل (ما) النافية على الجملة الفعلية بفعليها: الماضي والمضارع، وتفيد النفي، وهي غير عاملة فيهما. قال صاحب المفصل نقلًا عن سيبويه: "(ما) نفي لقول القائل، هو يفعل، إذا كان في فعل الحال، وإذا قال: لقد فعل، فإن نفيه: ما فعل، فكأنه قيل: والله ما فعل"[١]. وقال ابن هشام: "إذا نفت المضارع تخلّص عند الجمهور للحال، وردّ عليهم ابن مالك بنحو: "قل ما يكون لي أن أبدله"[٢]. وأُجيب بأن شرط كونه للحال انتفاء قرينة خلافه"[٣]. والتحقيق أن (ما) النافية للمضارع تدل على:

* نفي الحال، ويكون ذلك حين تنتفي قرينة خلافه؛ كما في قوله تعالى: "ما نَفْقَهُ كَثِيرًا ممَّا تَقُول"[٤]، فإن النفي في هذه الآية واقع في زمن الحال.

* نفي الاستمرار، ويقصد به أن يكون النفي مجردًا من الاقتران بزمن معين، ويكثر ذلك في الحقائق الثابتة؛ كما في: "وما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا الله"[٥]. حيث أثبتت علم الله بتأويله على جهة الدوام، ونفت علم غيره به على جهة الدوام أيضًا.

و(ما) النافية للماضي تنفي: الماضي القريب من الحال، كما في قول طلاب يتنظرون معلِّمًا قادمًا إليهم: ما حضر المعلم. وتنفي الماضي الدالّ على المستقبل، كما في: "ولَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ"[٦]، ففعل الشرط (أتيت) وجوابه (ما تبعوا)، كلاهما فعلان ماضيان من حيث اللفظ مستقبلان من

---

(١) الزمخشري، جار الله، المفصل في صنعة الإعراب، ص ٤٠٥.

(٢) يونس: ١٥.

(٣) ابن هشام، جمال الدين، مغني اللبيب، ١/ ٣٣٣.

(٤) هود: ٩١.

(٥) آل عمران: ٧.

(٦) البقرة: ١٤٥.

حيث المعنى. وتنفي الماضي المستمر؛ كما في الحديث النبوي الذي سيأتي بعد قليل.

ومن نماذج دخول (ما) النافية على الجملة الفعلية في رياض الصالحين:

- **قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن رب العزة: "يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتقَى قلبِ رجلٍ واحدٍ مِنْكُمْ مَا زادَ ذلكَ فِي مُلكي شيئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلكم وآخرَكُم وإنسَكُم وجنكُمْ كَانوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا"**[1].

هنا فعلان كلاميان (ما زاد) و(ما نقص)؛ دخلت فيهما (ما) النافية على فعل ماض، ودلالتها للنفي المستمر؛ فإن اجتماع الناس كلهم على التقوى لا يزيد في ملك الله عز وجل شيئًا وذلك على الدوام، كما أن اجتماعهم كلهم على الفجور لا يُنقص من مُلكه شيئًا وذلك أيضًا على الدوام.

وهذا النفي فعل إخباري يقرر اتساع ملك الله عز وجل، وأنه لا يتأثر بتقوى الناس ولا بفجورهم. وهو أيضًا فعل توجيهي طلبي يستحث الناس لإخلاص العبادة لله عز وجل لأنه يستحقها، كما يدعوهم إلى الإكثار من مسألته فإن ملكه واسع لا ينفد ولا ينقصه شيء. وهو أيضًا فعل إعلاني تصريحي يستهدف تصحيح تصور الناس عن رب العباد، فربما يظن ظان أن تقواه توسِّع من ملكه عز وجل أو أن فجوره ينقص من هذا الملك، فجاء النفي لتصحيح هذا التصور. وهذا النفي أيضًا فعل تعبيري إفصاحي تأثيري؛ لأن العابد حين يعبد الله وفي تصوره أن الله غني عنه، وأن ملكه له من السعة ما لا تؤثر فيه المؤثرات فإن هذا يجعله على وجل وخشية من عدم قبول عمله ويشعره بنقصه وحقارته أمام الله عز وجل، كما يجعله على رجاء وحسن ظن لأن كرم الله واسع وهو عز وجل ليس بحاجة إلى عبادة عابد كما لا يضره فجور فاجر.

---

[1] النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص ٧٠، رقم الحديث ١١١.

ومن الأفعال التي يتضمنها هذا النفي أن فيه "تنبيهًا للخلق على أن يعظموا المسألة ويوسِّعوا الطلب، ولا يقتصر سائل ولا يختصر طالب؛ فإن ما عند الله لا ينقص وخزائنه لا تنفد؛ فلا يظن ظان أن ما عند الله يغيضه – أي: ينقصه– الإنفاق ... وسر ذلك أن قدرته صالحة للإيجاد دائمًا لا يجوز عليها عجز ولا قصور والممكنات لا تنحصر ولا تتناهى"(١).

ومنها أيضًا أن ملك الله عز وجل "مرتبطٌ بقدرته وإرادته، وهما دائمان لا انقطاع لهما، فكذا ما ارتبط بهما، وإنما غاية التقوى والفجور عود نفع أو ضرّ على أهلهما، وفي ذلك إشارةٌ إلى أن ملكه على غاية الكمال، لا يزيد بطاعة جميع الخلق وكونهم على أكمل صفة البِرّ والتقوى، ولا ينقص بمعصيتهم؛ لأنه تعالى الغني المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فملكه كاملٌ لا نقص فيه بوجهٍ، بل لا يتصور وجود أكملَ منه"(٢).

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إليّ عبد بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه..."(٣).**

في هذا الخطاب فعلان كلاميان منفيان (ما تقرب)، و(ما يزال عبدي)؛ وهما دالان على أن الفرائض أحب ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل، كما أن النوافل طريق إلى نيل حبه عز وجل، وإنما يزكو ثواب النوافل لمن حافظ على الفرائض وأدّاها على وجهها المطلوب.

---

(١) ابن دقيق العيد، تقي الدين أبو الفتح، شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، ص ٨٩ – ٩٠، نشر مؤسسة الريان، الطبعة السادسة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

(٢) الهيتمي، ابن حجر، الفتح المبين بشرح الأربعين، ص ٤٢٥، عني به: أحمد المحمد وقصي الحلاق وأبو حمزة الدّاغستاني، نشر دار المنهاج، جدة، السعودية، ط١، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٨م.

(٣) النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص٤٨، رقم الحديث ٩٥.

وهذا النفي فعل إخباري يقرر حب الله عز وجل لمن يؤدي الفرائض ويكثر من النوافل. وهو أيضًا فعل توجيهي طلبي يدعو إلى أداء ما افترضه الله عز وجل كما يدعو إلى التقرب إليه بالنوافل والحرص على نيل حبه ورضاه. وهو أيضًا فعل إعلاني تصريحي يستهدف تصحيح التصور وضبط السلوك؛ فربما ظن ظان أن نيل حب الله عز وجل إنما يكون فحسب بأداء الفرائض، فجاء خطاب النفي ليصحح هذا التصور، ويبين أن أداء النوافل طريق إلى نيل هذا الحب أيضًا. وهو أيضًا فعل التزامي بما يتضمنه من وعد الله لمن التزم بالفرائض والنوافل بأن ينال حبه، ونيل حبه طريق إلى نيل رضاه وثوابه. وهو أيضًا فعل إعلاني إفصاحي هدفه التأثير على مشاعر المخاطب بالسعي إلى نيل هذا الحب ومجاهدة النفس وفتح باب الأمل لمن قصّر في الطاعات بأن يبادر إلى أداء الفرائض والإكثار من النوافل، فالطريق ما زال مفتوحًا والفرصة ما زالت قائمة.

ومن الأفعال التي يتضمنها هذا النفي أن التقرب بالفرائض يشمل فرائض العين والكفاية، وأن الفرض كالأصل والأس، والنفل كالفرع والبناء، وأن الذي يؤدي الفرض قد يفعله خوفًا من العقوبة ومؤدى النفل لا يفعله إلا إيثارًا للخدمة فيجازى بالمحبة التي هي غاية مطلوب من يتقرب بخدمته[١].

[١] ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١١/ ٣٤٣.

المحور الثاني: أنماط النفي الضمني

تتميز اللغة العربية بالقدرة على تنويع الأساليب، وإنتاج أنماط تعبيرية مختلفة؛ بهدف استيعاب المعاني المختلفة وأداء الأغراض المتنوعة، ومن ذلك أسلوب النفي فإنه قد يكون باستخدام أدواته المعروفة، وقد يكون بألفاظ أخرى تؤدي إليه ويساعد على ذلك السياق، وهو ما يُسمى بالنفي الضمني، وفيه يبدع صاحب اللغة في التعبير عن النفي بأسلوب مختلف غير مباشر، وبه تظهر قدرته على الابتكار والإبداع واستنطاق إمكانات اللغة وما تتيحه من طاقات، دون الخروج عن حدودها وتراكيبها. ومن أنماط النفي الضمني في رياض الصالحين ما أذكره في هذه السطور على جهة التمثيل:

١-الاستفهام:

الاستفهام هو طلب الفهم، وهو "استعلام ما في ضمير المخاطب. وقيل: هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئين، أو لا وقوعها، فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصور"[١].

وقد يخرج الاستفهام عن معناه، فلا يحتاج إلى إجابة، بل يكون استفهامًا معلوم الجواب، ولكن يُقصد به غايات دلالية، منها النفي، وهذا ما يسمى بالاستفهام البلاغي، والنفي به يكون ضمنيًّا لا تصريحيًّا.

أ- كيف:

اسم استفهام مبنِيٌّ على الفتح، وقد يكون استفهامًا حقيقيًّا، أو غير حقيقي فيخرج مَخرج النفي أو التعجُّب أو الاستنكار وغير ذلك. كما تَرِد (كيف) للشرط، فتقتضي فعلين مُتَّفقي اللفظ والمعنى غير مجزومين، وقد تتصل بها (ما) فنقول: كيفما. ومن نماذج (كيف) الاستفهامية في رياض الصالحين:

---

[١] الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، ص ١٨، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن؟"**[١].

الفعل الكلامي هنا (كيف أنعم)، وهو استفهام يتضمن معنى النفي، يعني: أنه لا ينعم؛ لأن صاحب القرن قد التقم القرن إيذانًا بالنفخ فيه للإعلان عن يوم البعث. ولهذا الفعل الكلامي قيمة إنجازية تأثيرية –وتسمى في التداولية بالفعل التعبيري– ناتجة عن شعور منشئ الخطاب –وهو النبي صلى الله عليه وسلم–بالخوف من هذا اليوم، وأيضًا تخويف المخاطبين من هذا اليوم، وهو يتضمن شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على أمته وحرصه على نجاتها، وهدف هذا التخويف هو التحذير من اقتراب الساعة والحث على الاستعداد لهذا اليوم بالعمل الصالح، وهذا يعني أن الفعل الكلامي هنا يقتضي فعلًا توجيهيًّا طلبيًّا وهو إنجاز العمل الصالح، وإنجاز العمل الصالح يقتضي فعلًا إعلانيًّا تصريحيًّا هدفه تغيير سلوك المخاطبين وضبط حياتهم.

ب– ما:

ولها في العربية عدّة معانٍ، منها: أَن تكون استفهامية أو نافيةً أو مصدرية أو شرطية أو تعجبية أو موصولة. ومن نماذج (ما) الاستفهامية في رياض الصالحين:

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"**[٢].

التداولية في معناها العام هي إنجاز الأفعال بالكلام؛ وذلك أن لكل فعل كلامي قوة إنجازية يتغياها. والفعل الكلامي هنا (ما لي وللدنيا) يشتمل على استفهام يقتضي النفي، وقوته الإنجازية هي نفي العزوف عن الدنيا والتعلق بها وقطع الحبال التي توصّل إلى ملذاتها وشهواتها. وتضمن الاستفهام لمعنى النفي فيه قوة تأثيرية قد لا يحققها النفي الصريح. ويتضمن هذا الفعل الكلامي أيضًا قوة إنجازية تعبيرية –

---

[١] النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص١٣٢، رقم الحديث ٤٠٩.

[٢] النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص ١٥١، رقم الحديث ٤٨٦.

وتسمى في التداولية بالقوة الإفصاحية- هدفها تفريغ القلب من حب الدنيا وصرف همة العبد عنها، وهذا يعني اشتمال هذا الفعل على قوة إعلانية تصريحية هدفها تغيير سلوك المخاطبين وضبط علاقتهم بالحياة، كما يعني أيضًا اشتماله على قوة توجيهية طلبية هدفها صرف همة العبد إلى ما يقرب من الآخرة ويرفع درجته عند ربه عز وجل. ومن الأفعال التي يتضمنها النفي هنا أن استحضار الآخرة هو الحامل على الزهد في الدنيا، كما أن "تناول الشهوات المباحة بقصد التقوّي على الطاعة يصيرها طاعة فلا تكون من الدنيا"[1].

ج- مَنْ:

وهي اسم استفهام قد تتحول دلالته إلى النفي إذا وُظف في سياق يدعم هذا المعنى. ومن معانيها في العربية غير الاستفهام: أن تكون شرطية أو موصولة أو نكرة موصوفة. ومن نماذج (من) الاستفهامية في رياض الصالحين:

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله"[2].**

الفعل الكلامي (فمن يعدل) استفهام يتضمن معنى النفي؛ أي: لا أحد يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله. ويحمل هذا الاستفهام رسالة سامية لا يؤديها إذا كان الفعل الكلامي خبريًّا، فإن للإنشاء هنا قوة تأثيرية غير مباشرة في تعزيز صفة عدل الله عز وجل وعدل رسوله صلى الله عليه وسلم.

وترسيخ صفة عدل الله عز وجل وعدل رسوله صلى الله عليه وسلم يُعدّ فعلًا إعلانيًّا تصريحيًّا هدفه تعديل تصور المخاطبين عن عدل الله عز وجل وعدل رسوله، ويترتب على ذلك تعديل سلوكهم في الحياة. وهو أيضًا فعل توجيهي طلبي هدفه نشر العدالة في المجتمع المسلم وغرس هذه القيمة عند الحكم على الناس أو التعامل معهم، وهذا يقتضي الابتعاد عن ظلم الآخرين وتجنب الحيف عليهم. وهو

---

(1) الهيتمي، ابن حجر، أحمد بن محمد، الفتح المبين بشرح الأربعين، ص ٥٠٥.

(2) النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص٢٩، رقم الحديث ٤٢.

أيضًا فعل تعبيري إفصاحي يعزز قيمة العدل ويحببها إلى نفوس المخاطبين، ومن وسائل تحبيبها بيان أنها من صفات الله عز وجل وأيضًا من صفات نبيه عليه الصلاة والسلام.

وقد كان من سلطة منشئ الخطاب وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاقب على اتهامه بعدم العدل، ولكنه اختار أن يوصل رسالة إلى المتلقي عبر الاستفهام الذي لا يحتاج إلى إجابة، وإنما يتضمن معنى النفي، وبذلك تُحقق تداولية الفعل الكلامي (فمن يعدل) هدفها، وتوصل رسالتها من خلال هذا الاستفهام، وتبين سعة صدره صلى الله عليه وسلم وحلمه وصبره على الأذى، ومقابلة المنكر بالمعروف.

٢- الاستثناء:

وهو إخراج ما بعد (إلا) أو إحدى أخواتها من حكم ما قبلها. وقال الجرجاني: "إخراج الشيء من الشيء، لولا الإخراج لوجب دخوله فيه، وهذا يتناول المتصل حقيقة وحكمًا، ويتناول المنفصل حكمًا فقط"[١]. وأدواته: إلا، غير، سوى، خلا، عدا، حاشا.

ومن نماذج الاستثناء في رياض الصالحين:

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "كل ميت يُختم على عمله، إلا المرابط في سبيل الله، فإنه يُنمى له عمله إلى يوم القيامة، ويُؤمن من فتنة القبر"[٢].**

الفعل الكلامي: (كل ميت يُختم على عمله إلا المرابط)، فيه استثناء تام مثبت، المستثنى منه (كل ميت)، والمستثنى (المرابط)، وأداة الاستثناء (إلا)، وهو يتضمن النفي كما يتضمن الإثبات؛ أي: نفي انقطاع عمل المرابط في سبيل الله إلى يوم

---

[١] الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، ص ٢٣.

[٢] النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص٣٢٦، رقم الحديث ١٢٩٢.

القيامة فإن عمله في نماء واستمرار، وإثبات انقطاع عمل غيره؛ أي: ينقطع عن غير المرابط فلا يُكتب له عمل بعد موته. والمراد بالمرابط: "الملازم للثغر للجهاد"[1]. ويحمل الفعل الكلامي هنا قوة إنجازية توجيهية تحمل المخاطبين على الرباط في سبيل الله عز وجل، كما يحمل قوة تعبيرية تُحبب إليهم هذا الفعل وتدفعهم إلى الحرص إليه، ويعزّز هذا الحرص تضمن الفعل الكلامي قوة التزامية؛ حيث وعد الله المرابطين بدوام عملهم وعدم انقطاعه إلى يوم القيامة، وهذا فضل عظيم منه وجزاء مضاعف لعباده.

٣- النهي:

هو طلب الكف عن فعل الشيء على وجه الالتزام والاستعلاء، وله صيغة واحدة وهي المضارع المسبوق بـ (لا) الناهية. ومن نماذجه في رياض الصالحين:

- **"... أن رجلًا قال للنبي أوصني، قال: "لا تغضب". فردد مرارًا، قال: "لا تغضب"**[2].

الفعل الكلامي (لا تغضب) هو نهي يقتضي النفي؛ أي: لا ينبغي أن يقع منك غضب. وهذا الفعل الكلامي هو فعل توجيهي في المقام الأول يطلب من المخاطَب ألا يغضب. كما أنه فعل إعلاني تصريحي يقتضي تغيير سلوك هذا المخاطب وضبط تصرفاته بالبعد عن الغضب والحذر من عواقبه.

وهو أيضًا فعل تعبيري إفصاحي بما يثيره من كراهية الغضب والنفور منه، ومن وسائل هذا التنفير تكرار الطلب بقوله: (لا تغضب)؛ فإن هذا التكرار يعمق كراهية

---

[1] السندي، أبو الحسن، فتح الودود في شرح سنن أبي داود، ٣/ ٢٢، تحقيق محمد زكي الخولي، نشر مكتبة لينة، دمنهور، مصر، ومكتبة أضواء المنار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

[2] النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص ٣٢، رقم الحديث ٤٨.

هذا السلوك، ويؤكد على ضرورة سيطرة الإنسان على انفعالاته، والتحكم في سورات النفس ونوازغها.

ومن الأفعال التي تتضمنها تداولية النفي هنا أن كظم الغيظ يقتضي التحلي بصفات الحلم والصبر والعفو والإحسان وسعة الصدر، ومقابلة السيئة بالحسنة.

ومن الأفعال الضمنية أيضًا أن ترك الغضب إنما هو للطمع في نيل رضا الله عز وجل، والحذر من عواقبه الوخيمة التي تضر الفرد والمجتمع. ومنها عظم مفسدة الغضب وما ينشأ عنه وأنه أصل الشرور والمفاسد، وهذا مفهوم من تكرار النهي في قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تغضب). ومنها أن المؤمن الحق لا ينبغي أن يتصف بالشدة والغضب والقسوة، وإنما بلين الجانب والرحمة.

٤- القصر:

وهو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص[١]، ويقوم مفهومه على إثبات الأمر لطرف ونفيه عن آخر، ويكون القصر بـ: النفي والاستثناء، وإنما، وتقديم ما حقه التأخير، والعطف بـ(بل) أو (لكن) أو (لا). ومن نماذجه في رياض الصالحين:

- **قوله صلى الله عليه وسلم: "اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمّلتم"[٢].**

الفعل الكلامي المراد تحليل هنا هو (فإنما عليهم ما حُمّلوا وعليكم ما حُمّلتم)، وهو أسلوب قصر أداته (إنما)، والتقدير: إنما ما حُمّلوا عليهم وما حُمّلتم عليكم. ويمكن أن نقول: هو أسلوب قصر أداته تقديم ما حقه التأخير؛ حيث تقدم الخبر (عليهم) على المبتدأ (ما) وهو اسم موصول، والتقدير: ما حُمّلوا عليهم وما حُمّلتم عليكم. والضمير في قوله: (عليهم) يعود إلى الأمراء أو الحُكّام، والضمير في (عليكم) يعود

---

(١) الهاشمي، أحمد بن إبراهيم، جواهر البلاغة، ص١٦٥، ضبط يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت

(٢) النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، ص١٩٦، رقم الحديث ٦٦٩.

إلى الرعية. والنفي المراد هنا أن على الأمراء والحُكّام ما حُمّلوا وليس على الرعيّة، فتصيرهم لأنفسهم، كما أن على الرعية ما حُمّلت وليس على الأمراء، فهناك نفي وإثبات؛ أما الإثبات ففحواه أن كل قوم مسؤولون عن أعمالهم، وأن تقصير كل قوم لهم أنفسهم، فـ "كل نفس بما كسبت رهينة"[١]، وأما النفي ففحواه "ولا تزر وازرة وزر أخرى"[٢]، فلا يحمل قوم تقصير آخرين.

وهذا النفي ترسيخ وتأكيد للفعل الكلامي التوجيهي (اسمعوا وأطيعوا)، وتعليل له؛ فإن من يعرف أنه غير مسؤول عن ذنوب أميره وأميره غير مسؤول عن ذنوبه يتأكد لديه السمع والطاعة له. وهذا النفي أيضًا فعل خبري يقرر حال الأمراء كما يقرر حال الرعية، وهو أيضًا فعل إعلاني تصريحي هدفه ضبط سلوك كل من الأمراء والرعيّة بمعرفة حقوق كل فريق وواجباته.

ومن الملاحظ أن المرسِل وهو منشئ الخطاب وبحكم سلطته الدينية افتتح الكلام بالأمر بالاستماع والطاعة، ويرمي بهذا الفعل الإنجازي شد انتباه المخاطَب للأمر، ليستمع للخطاب ويمتثل للفعل الكلامي المراد إنجازه؛ بأن "نؤدي للأمراء حقهم، وأن عليهم ما حُملوا وعلينا ما حُملنا، فنحن حُمّلنا السمع والطاعة، وهم حُمِّلوا أن يحكموا فينا بالعدل، وألا يظلموا أحدًا، وأن يقيموا حدود الله على عباده الله، وأن يقيموا شريعة الله في أرض الله، وأن يُجاهدوا أعداء الله، هذا الذي يجب عليهم، فإن قاموا به؛ فهذا هو المطلوب، وإن لم يقوموا به، فإننا لا نقول لهم: أنتم لم تؤدوا الحق الذي عليهم، فلا نؤدي حقكم الذي لكم، هذا حرام، يجب أن نؤدي الحق الذي علينا، فنسمع ونطيع، ونخرج معهم في الجهاد، ونصلي وراءهم في الجُمع والأعياد وغير ذلك، ونسأل الله الحق الذي لنا"[٣].

---

(١) المدثر: ٣٨.

(٢) الأنعام: ١٦٤.

(٣) ابن عثيمين، محمد بن صالح، شرح رياض الصالحين، ٦٦٦/٣.

ومن الأفعال الضمنية أن توقير الأمراء والسمع والطاعة لهم فيه صلاح الدين والدنيا، وعدم توقيرهم فيه فساد الدين والدنيا. ومنها أن الطاعة تكون لمن يصدق عليه أنه أمير أو حاكم أو مسؤول، مع التنبه إلى أن الطاعة تكون في غير المعاصي.

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج، أذكر منها:

١- أسلوب النفي بحسب المقاربة التداولية فعل كلامي يهدف إلى إحداث أثر دلالي إنجازي في ذهن المخاطب، من خلال رسائل توجيهية من منشئ الخطاب وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المخاطبين، بهدف تحقيق عدة غايات كتغيير السلوكيات وضبط التصرفات وتصحيح التصورات، أو التنبيه على الممنوعات، أو الإرشاد إلى ضررها، كل ذلك من خلال فعل النفي باعتباره فعلًا كلاميًّا يحمل أحداثًا إنجازية وتأثيرية وضمنية يقتضيها السياق والمقام.

٢- أثبتت المقاربة التداولية للخطاب النبوي عمق العلاقة بين اللغة والشريعة، وأن الخطاب النبوي منبع ثر لتوظيف اللغة واستثمار إمكاناتها في إنتاج دلالات متنوعة تناسب حالات المخاطبين المختلفة.

٣- أبرزت المقاربة التداولية للنفي مقاصد الخطاب النبوي بدلالاته البلاغية والإقناعية وأحكامه الشرعية.

٤- تنوعت أنماط النفي في الخطاب النبوي إلى أنماط صريحة وأخرى ضمنية.

٥- تنوعت الأفعال الكلامية التي أثارتها المقاربة التداولية إلى أفعال خبرية تقريرية، وتوجيهية طلبية، وإعلانية تصريحية، وتعبيرية إفصاحية، ووعدية التزامية.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف، شرح صحيح البخاري ، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، وقام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، وعليه تعليقات الشيخ عبد العزيز بن عبد الله ابن باز.
- ابن دقيق العيد، تقي الدين أبو الفتح، شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، نشر مؤسسة الريان، الطبعة السادسة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- ابن طالب، عثمان، البراغماتية وعلم التركيب، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية، المطبعة العصرية، تونس، ١٩٨٥م.
- ابن عثيمين، محمد بن صالح، شرح الأربعين النووية، نشر دار الثريا.

وشرح رياض الصالحين، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦هـ.
- ابن علي، خلف الله، التداولية مقدمة عامة، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد ١٤، ٢٠١٧م.
- ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق يوسف خياط. دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.
- ابن هشام الأنصاري، جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، نشر دار الفكر، دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م.

- ابن يعيش، موفق الدين، شرح المفصل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م
- بدر الدين العيني، محمود بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد، التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م.
- الزركشي، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا بيروت.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢م.
- الزمخشري، جار الله، المفصل، دار الهلال، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م.
- السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية، دار هجر، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
- السندي، أبو الحسن، فتح الودود في شرح سنن أبي داود، تحقيق محمد زكي الخولي، نشر مكتبة لينة ، دمنهور، جمهورية مصر العربية ومكتبة أضواء المنار، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- الصبان، محمد بن علي، حاشيته على شرح الأشموني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الفعال الكلامية في التراث اللساني المعاصر، دار الطليعة، بيروت، لبنان،ط١، ٢٠٠٥م.

– صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.

– عبداللطيف، محمد حماسة، بناء الجملة العربية، دار غريب للنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

– عبدالهادي، ثروت السيد، أنماط النفي في الحديث الشريف بين التوصيف والتنظير، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم.

– العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩م.

– العيني، بدر الدين، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

– فضل، صلاح، بلاغة الخطاب، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

– فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط١، ٢٠٠٧م.

– القاضي عياض، أبو الفضل، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق يحيى إسماعيل، نشر دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

– قريرة، هدى محمد، أثر النفي على البنية النحوية للجملة العربية، مجلة كلية التربية، العدد ٢٣، سبتمبر ٢٠٢١م.

– القسطلاني، أبو العباس أحمد بن محمد، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، نشر المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة السابعة، ١٣٢٣هـ.

– مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٧٢م.

– المخزومي، مهدي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٦م.

- النجدي، فيصل بن عبدالعزيز، تطريز رياض الصالحين، تحقيق عبد العزيز الزير آل حمد، نشر دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- النووي، أبو زكريا، رياض الصالحين، تعليق محمد بن صالح العثيمين وعبد العزيز بن باز، دار ابن الجوزي، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ- ٢٠١٤م.
وشرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق فؤاد عبدالباقي، إحياء التراث العربي
- الهاشمي، السيد أحمد بن إبراهيم، جواهر البلاغة، ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي، نشر المكتبة العصرية، بيروت.
- الهيتمي، ابن حجر، الفتح المبين بشرح الأربعين، تحقيق أحمد المحمد وقصي الحلاق وأبو حمزة الدّاغستاني، نشر دار المنهاج، جدة، السعودية، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م.
- يونس، محمد، المعنى وظلال المعنى، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٧م.